ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول فى الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا فى الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أو لاستأذنوا رسول الله فى القعود .

ثم يقول الحق : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر - كما نعلم - هو ستر الإيمان . والمنافقون من الأعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلىء بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان .

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذى ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب فى القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطى رخصة للذين لا يقدرون على القتال ولهم العذر فى أن يتخلفوا عنه ؛ فقال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعفى الحق المرضى من القتال ؛ وهم من أصيبوا بعاهة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال . وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقون ؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة - كما نعلم - هى أن تقدر أن تعول نفسك فى الذهاب والإقامة مدة الحرب والعودة . وكان على كل مجاهد أن يُعدَّ مطلوبات الحرب . فالله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم الجهاد ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على الجهاد ؛ ليُحَمِّسوهم على القتال ، ثم يكونون فى عون أهل المجاهدين [1] ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التى يطلقها المنافقون فى المدينة ؛ للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخْرِسوا ألسنة السوء .

ثم يقول الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والسبيل : هو الطريق ، ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف . وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : « ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ » ؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا ينتهى إليهم بلوم ؛ لأن هناك فارقاً بين أن يمر عليهم وأن ينتهى إليهم ، فالمرور أمر عادى ،

(١)عن زيد بن خالد الجهنى أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٨٤٣) ومسلم (١٨٩٥) قال النووى فى شرحه لمسلم : « هذا الأجر يحصل لكل خالف له فى أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو مساعدتهم فى أمرهم » .

وليس هو الغاية ؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجد سبيل إليهم ولا إلى عتابهم ؛ لأنهم أدوا كل ما تطلّبه الجهاد منهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى ميدان القتال ؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ، وفعلوا كل ما يتطلّبه الإيمان.

أما إذا كان المجاهد لديه ما ينفقه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبها ، فعليه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسول الله ﷺ : ﴿ لا أجدُ ما أحملُكُمْ عليْهِ ﴾ فهذا إذن بالقعود ، وفى هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

إذن : فالمعفون من الجهاد هم : الضعيف والمريض ، والذى لا يجد قوتاً ، ولا يجد راحلة ؛ فيطلبها من رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله [1] : ﴿ لاَ أجدُ مَا أحْملُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ومن فى مثل هذه الحالة يحزن مرتين ولا يفرح ؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين فى ذلك الوقت أن يملكوا ما ينهض بنفقات المقاتلين أو أن يجهزوا لهم وسائل الانتقال إلى ميدان القتال ، والحزن الثانى : بسبب عدم تواجده فى ميدان القتال مشاركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد فى ميدان القتال .

إنه جهاد حماية القاعدين من إشاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محاربة الإيمان ، بل سيرجفون بنقل الأخبار الكاذبة إلى أهالى

---

(١) قال القرطبى : « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرّن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٥٣) .

المقاتلين ، وهم من نسميهم فى الاصطلاح الحديث "الطابور الخامس" ، وهم من يُثبِّطون همم ومعنويات أهالى المقاتلين . إذن : فمن قعد عن القتال بسبب عذر حقيقى فله جهاد آخر فى حماية الجبهة الداخلية من أهالى المقاتلين فى مواجهة حرب الإشاعات التى يقودها المنافقون .

وهكذا نجد الجهاد [1] فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير المسلمين تكون لأمرين : الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأن يقفوا فى سبيل الداعى ليسكتوه عن الدعوة إلى الله ، والأمر الثانى : أن ينتشر المسلمون فى الأرض ليُعْلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، و السيف الذى حُمل فى الإسلام ، لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان فى أن يختار الدين الذى يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان ؛ إنما ينشأ بإزاحة العقبات التى تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها ، فيختار بحرية الدين الذى يرتضيه .

إذن : فالإسلام لم يفرض بالسيف ، وإلا فمن الذى فرض الإسلام على الذين سبقوا إليه حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمى من دخل فيه ؟!

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما فرض عين - إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية - إن قام به البعض سقط عن الباقين . ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف ؛ الضعفاء بشيخوخة أو صغَر ، والمرضى أصحاب الداءات ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفقه على نفسه ،

---

(١) الجهاد يكون فرضاً عينياً إذا حصل الاعتداء من الأعداء واحتلت البلد ويكون فرض كفاية إذا حدث اعتداء ولم تحتل البلد ، وكذلك لنشر دعوة الله فيكون الجهاد بالإقناع والدليل ؛ لأن الإسلام لا يعرف السيف إلا عند الاعتداء ووقوع الظلم على المسلمين من الغير .

وقسم لا يجد ما ينفقه على الحرب ، أى : لا يجد أدوات القتال أو الراحلة التى يركبها .

ورفع الحق سبحانه الحرج عن هؤلاء ، ووظَّفهم سبحانه فى وظيفة إيمانية تخدم الجهاد بأن يكونوا فى عون أهل المجاهدين ، ويقمعوا المرجفين الذين يريدون النيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليها ، ويخرسوا ألسنة السوء ، هذا بالنسبة للذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك [1] .

أما الذى يجد ما ينفق ، ولا يجد الوسيلة التى تنقله إلى ساحة القتال ؛ فعليه أن يذهب إلى ولى الأمر ليسأله الراحلة ، وكان رسول الله ﷺ هو قائد الجهاد فى حياته ، فإن قال لأحد : ليس عندى ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفى لرفع الحرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله فى حب الجهاد ، وحزنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : ﴿ **تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ وكلمة " تفيض أعينهم " توضح ما فى قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هى ماء حول العين ؛ يهيجه الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن ونفد الدمع وجمدت العين عن البكاء ؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال : " بكيت دماً " .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : " فاضت دموعهم " ، ولم يقل : "بكوا دماً بدل الدموع " ، وإنما قال : ﴿ **وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ** ﴾ ، فكأن العين

---

(١) وذلك بالإعلام الدينى وتحجيم الإشاعات الكاذبة .

ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يعد إلا أن تفيض العين على الخد ، وذلك إظهار لشدة الحزن فى القلب ، وهذا المجاهد لا لوم عليه ولا ذنب ؛ لأنه فعل ما فى وسعه وما فى طاقته وعبر عن ذلك بحرقة مواجيده على أنه لم يكن من أهل الجهاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هناك قال سبحانه : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ الذين كانت لهم أعذارهم فى التخلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين فى تخلفهم هذا فقال تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . إذن : فعلى من يكون السبيل ؟

وهنا تأتى إجابة الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

أى : أن طريق الإثم واللوم والتعنيف والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوا فى أن يقعدوا عن القتال ، ونعلم أن الغنى إذا أطلق ينصرف إلى غنى المال ، ولكن الغنى إذا جاء بالمعنى الخاص ، يكون معناه ما يدل عليه النص . فالذى لا يجد ما ينفقه أعْفىَ . إذن : فمن يجد ما ينفقه فهو غنىّ بطعامه . والضعيف قد أعْفىَ ، إذن: فالقوىّ غنىّ بقوته . والمريض أعْفىَ ، إذن : فالصحيح غنىّ بصحته . ومن لا يجد ما ينقله إلى مكان الجهاد فقد أعْفىَ ، إذن : فمن يملك راحلة فهو غنىّ براحلته .

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة « الغنى » على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد ؟ إذن : فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد.

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأذنون وهم أغنياء ؟

نقول : لأنهم منافقون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ ومن يَرْضَ أن يكون وضعه مع الخوالف ، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهمة ؛ فهم رضوا أن يُعاملوا معاملة النساء ، والخوالف - كما نعلم - جاءت على مراحل ، فهم قالوا:

﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) ﴾ [التوبة]

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة ؛ لأن الرجل قَيِّم على أهله . والقعود للنساء ، والخوالف ليست جمع خالف ، وإنما هي جمع « خالفة » ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة « القواعد » يقول سبحانه:

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ... (٦٠) ﴾ [النور]

أي: أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة ؛ فتنازلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول:

وَمَا أَدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْري أقَومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

أي : « القوم » في مقابل « النساء » .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقابهم ، فيقول : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفي الآية السابقة يقول سبحانه : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة]

ما الفرق بين النصين ؟

إذا رأيت فعلاً تكليفياً مبنياً للمجهول ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة]

قد يقول قائل : كان المفروض أن يقال : « كتب الله عليكم القتال» و « كتب الله عليكم الصيام » ، لأنه صار أمراً لازماً مفروضاً ، فكان الأولى أن يقول : كتب الله ، أي أن الذي يفرض هو الله. رغم أن الحق سبحانه هو الذي يكلف ، إلا أن كل التكليفات تأتي بصيغة المبنى للمجهول كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ... ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... ﴿١٨٠﴾ ﴾ [البقرة]

والسبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأى تكليفات إيمانية ؛ فسبحانه لم يكلف بأى حكم من أحكام الإيمان إلا من آمن به وأسلم له ؛ لذلك فعندما يخاطب سبحانه بالتكليف يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة]

ومن هذا تعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسان يدخل فى الإيمان باختياره ، فإذا دخل فى الإيمان كتب الله عليه . إذن : فالإيمان هو مدخل الفريضة . وما دُمْتَ قد آمنتَ فقد أصبحتَ طرفاً فيما فرضه الحق سبحانه وتعالى عليك ؛ لأنك لو لم تؤمن

فليست عليك فرائض ، إذن : فأنت الذى ألزمتَ نفسك بحكم الله ؛ لأنك آمنت به إلهاً خالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت ؛ فرض الله عليك ، فأنت طرف فى كل فريضة عليك. ورغم أنه سبحانه وتعالى هو الذى فرض ،فقد أحبَّ فيك أنك دخلْتَ فى نطاق التكليف بإيمانك ؛فبنى الفعل للمجهول.

وإذا جئنا إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ نجد أن الحق يلفتنا هنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبع على القلوب ؛ لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ، ثم أخذوا يتحدثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله ؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : مادمتم قد اخترتم النفاق والكفر فى قلوبكم ؛ فسنطبع على هذه القلوب ، ونختم عليها حتى لا يخرج الكفر منها ولا يدخل إليها الإيمان.

فسبحانه وتعالى - إذن - هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا ، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم ؛ ولهذا جاء الفعل مبنياً للمجهول ، فهم مشتركون فيه .

أما الآية التى نحن بصددها فيقول تعالى:

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة ينسب الطَّبْع إلى الله يكون أقوى طبع على القلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم نهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد لا يفهم شيئاً ، أى : لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه.

لذلك فنفْى الفقه أو الفهم لا ينفى العلم ، ولكن حين ينفى العلم فهو ينفي الفهم عن الذات ، وينفى الفهم عن الغير ، ولذلك حين يقال : ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : لا يفهمون بذواتهم ، ولكن قد يتعلمون العلم من غيرهم. أما إذا قلنا : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمقصود أنهم لا يفهمون ولا يتعلمون. إذن: نفى العلم ينسب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفى الفقه فينسب نسبة عامة للفعل المبنى للمجهول .

فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى الفقه عنهم بالفعل المبنى للمجهول أوضح أنهم بنفاقهم لا يفقهون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يَنْفِ احتمال أن يعلموا من غيرهم فى المستقبل . ولكن عندما قال الحق : ﴿ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قد نفى عنهم - أيضاً - العلم بذواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون الطبع على قلوبهم أقوى ؛ لأنهم رفضوا العلم من ذواتهم ورفضوه من غيرهم.

ولذلك نجد ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ فى موضع ، ونجد ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فى موضع آخر ، وكلٌّ تناسب موقعها الذى قيلت فيه .

ثم يقول سبحانه :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ومعنى «يعتذر» أى: يبدى عذراً عن شىء يُخرجه من اللوم أو التوبيخ، ويقال : « اعتذر فلان » أى : فعل شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه .

والحق هنا يقول : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وفى آية سابقة يقول مخاطباً النبى ﷺ :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين نسب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ ، وعندما نسبه إلى رسول الله ﷺ قال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ مما يدلنا على أن زمام محمد ﷺ بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ويأتى بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين فى الاعتذار : ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا ﴾ ، وفى هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً فى أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً . ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألاَّ وجه للمعذرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ وتهيأوا للاعتذار؛ وقبل أن ينطقوا بالعذر ؛ أوضح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدائهم للعذر . ثم فاجأهم بالحكم فى قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ومادة «آمن» تدور حول عدة معان ، نقول: «آمن » أى : اعتقد وصدق مثل قولنا : « آمن بالله » ، ويقال : « آمن بالشيء » أى : صدَّقه ، و « آمن بكذا » أى : صدَّق ما قيل . والحق هو القائل :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

وقال إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)﴾ [يوسف]

أى : لن تصدقنا . وآمن إذا تعدَّتْ بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإن تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

وتجىء أيضاً « آمن » و « أمن » بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب :

﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤)﴾ [يوسف]

إذن : فـ « آمن » إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيمانى ، وإنْ تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّتْ بنفسها إلى الفعل فهى إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً ؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ... (٧٥)﴾ [آل عمران]

وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أى: لن نصدقكم . فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله ﷺ يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم : لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبره بكل شىء ؛ حتى بما فى قلوبهم

قبل أن ينطقوه ، ولو امتلكوا ذرة من فطنة لرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا فى الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً فى قوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ فكأن المسألة ليست فراسة استنتاج ، ولكنها وحى من الله.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .

ما هو العمل الذى سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبره بما يُخْفونه من كذب فى صدورهم ؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يغلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتيقنوا أن رب محمد ﷺ لا تخفى عليه حتى نواياهم . ومادُمْتم قد علمتم صدق محمد ﷺ فى كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم - إذن - أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان ؛ وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد اختلفت أعمالكم من النفاق إلى الإيمان ، أما إنْ أصررتم على ما أنتم فيه ؛ فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التى أنبأ الله فيها رسوله بكذبكم.

إذن: فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانتهزوا هذه الفرصة ؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم فى المستقبل ، وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم [1] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أَوْلى أنه عليم بعالم الشهادة .

(١) الأنباء : الأخبار الهامة. قال الحق: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٦٧﴾﴾[الأنعام] -وأنبأه بالشيء ونبأه به: أخبره ، وذكر له قصته .

والغيب - كما نعرف - هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً . ولكن إنْ غاب عنك ولم يَغبْ عن غيرك فهو غَيْبٌ نسبى ؛ لأن هناك حجباً منعت عنك العلم ، والمثَال : إن سُرق منك شىء فأنت لا تعرف السارق ؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف . والذى أخفى السارق عنده المسروقات يعرف . والذى ابتاع المسروقات يعرف.

إذن : فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما الغيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدّعون قراءة الأفكار ، ويسمونهم المنوِّمين المغناطيسيين ، ويطلب المنوّم من أى واحد أن يُخرج ما فى جيبه من نقود وأن يقوم بعدّها ، ثم يخبره بعددها ، وإن أردت أن تكشف ألاعيبه ؛ ضع يدك فى جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها، واسأله عن هذا المقدار فلن يعرف ، لماذا ؟ لأنك نقلت المسألة من غيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق.

إذن : فالغيب[1] المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعطيت ابنك تمريناً هندسيّاً ليحله ؛ فالحل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستخدم المقدمات والنظريات حتى يصل إلى الحل ، فكأن هناك أشياء لها مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً ؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذى اكتشف تفتيت الذرة أنهما علما الغيب . فقد كانت هناك مقدمات فى الكون أوصلتهما إلى كشف بعض القوانين الموجودة بالفعل ، لكنّنا لم نكُنْ نعرفها.

---

(١) الغيب: مصدر ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (٣)﴾[البقرة].
والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه : غيوب قال تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة] وهذا هو الغيب المطلق .
أما الغيب النسبى: فهو الذى يغيب عنك ولم يغب عن غيرك ، وقد تعرفه عند الإذن بميلاده .

وفى بعض التدريبات ، نجد من يضع المسألة المطلوب حلّها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها ؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح.

ولذلك إذا أردت أن تحلّ شيئاً فى الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل ؛ كأن يُطلب منك - مثلاً - إثبات أن الخطين متوازيان ، وفى هذه الحالة يجب أن تكون كل زاويتين متناظرتين متساويتين ، وكل زاويتين متبادلتين متساويتين . إذن : فأنت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك فى تساوى ضلعى المثلث أو أضلاعه ؛ يكون إثباته بتساوى الزوايا . فهل فى هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب ؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج ؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، تقول : إن هذا يساوى هذا حسب النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت فى براهينك إلى نظرية رقم واحد فهى النظرية التى لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بديهية.

وهكذا نجد أن كل علم فى هذا الكون بُنى على نظريات أو مقدمات بديهية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله فى كونه من أسرار [1] . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى أنه سبحانه عالم بالغيب المطلق ، الذى لا توجد له مقدمات توصلنا إليه ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق ؛ لأنه ليس معروفاً

---

(١) هذه الاكتشافات التى عرفت من المقدمات والنظريات والتجارب لا يطلق عليها أنها غيب - وإن كانت غائبة قبل التعامل مع المقدمات أو التجارب ، فهذا لجهلنا بالتعامل مع العلم ، وأن ميلاد ظهورها لم يَحنْ بعد ، فهذا بتقدير العزيز العليم .

عند البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه ؛ لأنه الغيب الذى ينفرد به الحق عزّ وجلّ .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧) ﴾ [الجن]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن الغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور :

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ... (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذى يشاؤه لذلك ، وكل شىء فى الكون له ميعاد ميلاد ؛ مثل : الكهرباء ، والذرة، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد . ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أى اكتشاف إلا بإذن الله حين يلفتهم إلى هذا السرّ ؛ إما بالبحث العلمى ، وإما أن يتم معرفته صدفة .

وهكذا نجد أن البشر يُحَاطون عِلْماً بهذه الأسرار بعد مقدمات وبإذن من الله .

وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب ؛ فيكون سبحانه عالماً بالشهادة [١] من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه إن جلس فى مكان معزول مستور

---

(١) الشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شُهَّد (كراكع وركّع) وجمع الجمع : شهود أو شهود : جمع شاهد ، مثل : قاعد وقعود . والشهادة بمعنى ما يشاهد بالمدركات والوجدانيات للوصول إلى الاختيار ، ذلك عند الإنسان ، أما بالنسبة لله سبحانه فهو عالم الغيب والشهادة فهو (عَلاَّم الغيوب) لأنه خالقها فهو أعلم بغيبها وظاهرها .

ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله ؛ لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقى ؛ لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه فى هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه .

وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فلا بد أن يأتى بعدها ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : يخبركم مقدماً بجزاء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لو علم أن فعله يؤدى إلى الشر لما فعل ؛ وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه ؛ لأن الله أبلغه بالجزاء ، فيكون الجزاء عدلاً لا ظلماً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فأنت الذى تحكم على نفسك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

وكلمة ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ فيها سرّ إعجازى من الله ؛ لأن حرف « السين » هنا تدلنا على أنهم لم يحلفوا بعد ، أى أن الآية نزلت وقُرئت وسمعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتلى وتُقرأ فى الصلاة ، ولا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة .

ولو كان للمنافقين قدرة على التدبر لما جاءوا وحلفوا . ولقالوا : إن رسول الله ﷺ قال في قرآن يوحى إليه : إننا سنأتي ونحلف ، ونحن لن نأتي ولن نحلف ؛ ولكن لأن الله هو القائل وهو الخالق وهو الفاعل ، فقد شاء أن تغيب الفطنة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قبل:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية[1] .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ والانقلاب معناه التحول من حال إلى حال . ومعنى الانقلاب في هذه الآية مقصود به العودة إلى المدينة مقر السلام والأمن بعد الحرب ، فكأن الاعتدال في القتال والانقلاب في العودة إلى المدينة . ولكن لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي : لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعنيفهم ؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم.

فقال الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي أعطوهم مطلوبهم من الإعراض ولكنه لون آخر من الإعراض ، فلا تلوموهم ولا توبخوهم ولا تؤثموهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة، لا إعراض صفح ومغفرة[2] ؛ جزاءً لهم على ما فعلوا ؛ لأن التأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل في المخالف ليعود إلى الصواب. فأنت إن لم يذهب ابنك إلى المدرسة مثلاً تُوبِّخه وتُعنِّفه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل في أن ينصلح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذا الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل في إصلاحه.

---

(١) لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل وما فيها ومن فيها .

(٢) إعراض الصفح والمغفرة قد ورد في القرآن الكريم في قوله سبحانه في سورة يوسف من قول العزيز ليوسف : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩] أي : اصفح يا يوسف عما حدث واتهمتك به المرأة ولا تذكره لأحد .

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين . لو أن التوبيخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً فى الإصلاح ، وهم لن ينصلح حالهم ، وهم فى ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبيخ من إخوته فى الإيمان ، وفى هذا إيلام له . والمؤمن عرضة أن تصيبه غفلة فيرتكب إثماً ، فإذا حدث بعد هذا الإثم إيلام له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول به إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم التوبيخ أو الإيلام النفسى ؛ لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر : فأعرضوا عنهم ؛ لأنهم لا يستحقون - حتى - اللوم ، فالتوبيخ جزاء على ذنب قد يُقلع عنه من ارتكبه . ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، والعلة يأتى بها القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أى: هم الخباثة بذاتها ، ويقول العلماء: أى أن فيهم خبثاً وقذارة . وأقول : إن الرجس هو القذارة نفسها ، فلا نقول: إنهم قذرون ؛ لأننا إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهُرٌ أصابهم قذر، وهم ليسوا كذلك ، إنهم «قذر» فى حد ذواتهم ،ولا يطهرهم شىء؛ لأن الذى يخرج من القذارة يكون مثلها ؛ فهم خباثة لا يطهرها لَوْم أو توبيخ . وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق:

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ [1] ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ولم يقل : « نجسون » بل هم أنفسهم نجس.

---

(١) نَجِسَ ينجَسُ نَجَساً . فهو نَجِسٌ لحقه دنس أو قذر ، وهو فى المحسوس حقيقة وفى المعنوى مجاز ، ويوصف بالمصدر للمبالغة فيستوى فيه المفرد وغيره ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة] والنجاسة هنا معنوية فهو الكفر والضلال.

والرجس يطلق أيضاً على الشيء القذر حسياً ؛ مثل الميتة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالميتة قذارة حسّية ، كذلك الخمر التى يقول فيها الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

فالخمر نفسها رجس ، أى : قذارة حسّية ، وعطف عليها الحق - سبحانه - الميسر والأنصاب ، والأزلام [1] ؛ وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا نفهم أن الخمر رجس حسّى ، بينما الأنصاب والأزلام والميسر رجس معنوى .

وهناك أيضاً الرجز ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ... (١١) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالرجس له متعلقات ؛ معناه هنا الكفر ، والكافر هو قذارة فى حَدِّ ذاته لا أنه إنسان أصابته قذارة .

ويقول الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والمأوى : هو المكان الذى يؤويك من شر يلحقك ، ويقال : « آوى إلى كذا » أى : هرب من شر يُراد به ، فإذا كان المأوى الذى يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أن يدخلوا جهنم ، وهى بطبيعة الحال بئس المصير .

---

(١) الأزلام : سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها : افعل ، والبعض الآخر : لا تفعل . فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى سادن الكعبة فقال : أخرج لى زلماً ، فإن خرج بـ « افعل » فعل ، وإن كانت « لا تفعل » لم يفعل .

وهل ذلك افتئات [1] عليهم أم جزاء ؟ يقول الحق : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ونعرف أن الحسنة يقال عنها : « كسب » ، والسيئة يقال عنها « اكتسب » [2] ، والحق هو القائل :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

وذلك لأن عمل الحرام المخالف لمنهج الله لابد أن يشوبه الافتعال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطرى لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتنازع فيه ملَكَات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألفونها إلْفاً بحيث تصبح سهلة ؛ فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئة كسباً ، كأن تأتى لإنسان ، فيحدثك بمغامراته فى الخارج ، ويروى عن رحلاته فى باريس ولندن ، وما فعل فيهما من منكرات . هو يظن أنه يحكى عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكى عن مصائب وقع فيها باختياره .

مثل هذا الإنسان يفعل السيئة ، وهو معتاد عليها ؛فتصير كَسْباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية ؛ فيظل يبكى ويبكى ويبكى ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويندم عليها [3] . فالأول فرح بخطاياه ومعاصيه واعتبرها كسباً ، وصارت له دُرْبة وله رياضة وله إلْفٌ بتلك المعاصى .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الافتئات : الاختلاق والقول بالباطل .

(٢) تعتبر السيئة كسباً عند هؤلاء لأنها أصبحت عادة عندهم .

(٣)عن عبد الله بن مسعود قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابة مرت على أنفه فقال به هكذا » . أى : نحاه بيده أو دفعه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٣) والترمذى (٢٤٩٧) . قال ابن حجر فى الفتح (١١/ ١٠٥) : « هذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة ، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيىء » .

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفعٌ ؛ فحين أقول : أنا راضٍ بالشيء الفلاني ، فمعنى هذا أن كمية النفع التي آخذها منه تكفيني . ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بنفع ما ، وعند غيرك ما هو أحسن منه لكنه غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل ما يجرى عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضى به ؛ لأن مجريه رحيم. وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُضَن عليه بمال ؛ لأنه سبحانه لو زَوَّده بالمال فقد يبعثره على أولاده ، ويصبح المال وسيلة انحرافهم [(١)] ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر أبناؤه من فترة المراهقة ، ثم ينعم ربنا عليه بالمال بعد أن وصل الأبناء إلى النضج ، وضنّ الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : «إذا لم يكُنْ ما تريد، فَلْتُرِدْ ما يكون ».

ولماذا يحلف المنافقون [(٢)] ؟ وتأتي الإجابة من الحق: ﴿ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ وماذا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المنافقين ؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف رضاء رسول الله ؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه ؟

إن ما يُفرح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم ؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضا ربه ، فالرضا الحق هنا هو

(١) قال الشيخ: المنع من الله عين العطاء ، وقد يكون العطاء نقمة .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/٣١٥٦) : « حلف عبد الله بن أبي ألا يتخلف عن رسول الله ﷺ بعد ذلك ، وطلب أن يرضى عنه ».